﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾

بعد أن أسكن الله سبحانه وتعالى آدم وزوجه فى الجنة . وأخبرهما بما هو حلال وما هو حرام . بدأ الشيطان مهمته . مهمة عداوته الرهيبة لآدم وذريته . والحق سبحانه يقول : « فأزلهما الشيطان » أى أن الشيطان باشر مهمته فأوقعهما فى الزلة . وهى العثرة أو الكبوة . كيف حدث ذلك والله تعالى قد نصح آدم وزوجه ألا يتبعا الشيطان . وأبلغه أنه عدو لهما . فى قوله تعالى :

﴿ ... إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

اذن فالعداوة معلنة ومسبقة . ولنفرض أنها غير معلنة . ألم يشهد آدم الموقف الذى عصى فيه ابليس أمر الله ولم يسجد لآدم ؟ ألم يعرف مدى تكبر ابليس عليه . فى قوله « أنا خير منه » وقوله « أأسجد لمن خلقت طينا » كل هذا كان ينبغى أن ينبه آدم الى أن ابليس لن يأتى له بخير أبدا . .

والحق سبحانه وتعالى لم يكتف بالدلالات الطبيعية التى نشأت عن موقف ابليس فى رفضه السجود . بل أخبر آدم ان الشيطان عدو له ولزوجه . . يقول الحق سبحانه وتعالى : « فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه » من ماذا أخرجهما ؟ من العيش الرغيد . واسع النعمة فى الجنة . ومن الهدوء والاطمئنان فى أن رزقهما يأتيهما بلا تعب . ولذلك سيأتى الحق فى آية اخرى ويقول : « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى »

وهنا لابد أن نتساءل : لماذا لم يقل فتشقيا ؟

ان هذه لفتة من الحق سبحانه وتعالى.. الى مهمة المرأة ومهمة الرجل فى الحياة . فمهمة المرأة أن تكون سكنا لزوجها عندما يعود الى بيته . تذهب تعبه وشقاءه . أما مهمة الرجل فهى العمل حتى يوفر الطعام والمسكن لزوجته وأولاده . والعمل تعب وحركة .

وهكذا لفتنا الحق تبارك وتعالى إلى أن مهمة الرجل أن يكدح ويشقى . ثم يأتى الى أهله فتكون السكينة والراحة والاطمئنان .

اذا كانت هذه هى الحقيقة . فلماذا يأتى العالم ليغير هذا النظام ؟

نقول ان العالم هو الذى يتعب نفسه . ويتعب الدنيا . فعمل المرأة شقاء لها . فمهمتها هى البيت . وليس عندها وقت لأى شىء آخر . فاذا عملت فذلك على حساب أولادها وبيتها وزوجها . . ومن هنا ينشأ الشقاء فى المجتمع . فيضيع الأولاد . ويهرب الزوج الى مكان فيه امرأة تعطيه السكن الذى يحتاج إليه . وينتهى المجتمع الى فوضى . .

وكان يجب على آدم أن يتنبه الى أن إبليس يعتبره السبب فى طرده من رحمة الله . فلا يقبل منه نصيحة ولا كلاما ويحتاط . . كيف أزل الشيطان آدم وزوجه ؟ لقد شرح الله سبحانه وتعالى لنا هذا ولكن ليس فى سورة البقرة وإنما فى آية أخرى . . فقال تعالى :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠ ﴾

(سورة الاعراف)

اذن فابليس قال كاذبا أن من يأكل من هذه الشجرة يصبح ملكا . ويصبح خالدا لا يموت . . ووسوسة الشيطان تتم بكلام كاذب لتزيين المعصية ، والشيطان لا يهمه أى معصية ارتكبت . وانما يريدك عاصيا على أى وجه . ولكن النفس عندما توسوس

لك بالمعصية ، تريد شيئا بذاته . وهذا هو الفرق بين وسوسة الشيطان . ووسوسة النفس . فالشيطان يريدك عاصيا بأى ذنب . فان امتنعت فى ناحية أتاك من ناحية أخرى . فقد قال لآدم : هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » ولكن هذه المحاولة لم تفلح . فقال لهما : « مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » وفات على آدم أنه لو كان هذا صحيحا .. لأكل إبليس من الشجرة .. ولم يطلب من الحق سبحانه وتعالى ان يمهله الى يوم الدين . .

ما الذى اسقط آدم فى المعصية ؟ انها الغفلة أو النسيان . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

وهل النسيان معصية . حتى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

( من الآية ١٢١ سورة طه )

نعم النسيان كان معصية فى الأمم السابقة . لذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »(١)

ونسى وعصى . تؤدى معنى واحدا . .

وقوله تعالى :

﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

---

(١) ( رواه الطبرانى عن ثوبان ) .

هذا الهبوط هو بداية نزول الانسان الى الأرض ليباشر مهمته فى الدنيا . ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : « ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين » . فهى اذن حياة موقوتة على قدر وقتها ، وعلى قدر حجمها . .

والذين يقولون بأنه لابد من وجود بشر نسميه مخلِّصا . ليفدى العالم بصلبه أو بغير ذلك من الخطيئة التى ارتكبها آدم . نقول له : انك لم تفهم عن الله شيئا ، لأن القصة هى هنا خطأ قد حدث وُصوب . وفرق بين الخطأ والخطيئة . فالخطأ يصوب . ولكن الخطيئة يعاقب عليها .

وآدم أخطأ وصوب الله له . وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه . اذن لا توجد خطيئة بعد أن علمه الله التوبة وتاب الى الله . ثم ماذا فعل آدم . حتى نقول نخلص العالم من خطيئة آدم . انه أكل من الشجرة . وهل خطايا العالم كلها أكل ؟!

من الذى أوجد القتل وسفك الدماء ، والزنا والاغتصاب والنميمة والغيبة ؟

لو أن كلامهم صحيح لكان لابد ألا توجد خطيئة على الأرض مادام قد وجد المخلِص الذى فدى العالم من الخطيئة . ولكن الخطيئة باقية . ومن الذى قال ان الخطيئة تورث . حتى يرث العالم كله خطيئة آدم ؟! . والله سبحانه وتعالى يقول : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . .

وقول الحق سبحانه وتعالى « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو » العداوة هنا بين الشيطان والانسان . والعداوة أيضا بين شياطين الانس والمؤمنين ، هذه العداوة التى تؤدى بنا الى نشاط وتنبه . فالمستشرقون يعادون الاسلام . ولكن معاداتهم هذه تعطينا نشاطا لكى نبحث ونطلع حتى نرد عليهم . وجنود الشيطان من الانس يعادون المؤمنين . وعداواتهم هذه تعطينا مناعة ألا نخطئ ولا نغفل . فأنت مادام لك عدو .. فحاول أن تتفوق عليه بكل السبل .

ولعل الحضارة الانسانية لا ترتقى بسرعة قدر ارتقائها وقت الحروب . ففيها يحاول كل خصم ان يتغلب على خصمه . وتجند كل القوى للتفوق علميا على الدول الأخرى . هذه الارتقاءات والاختراعات . قد تكون للتدمير والقتل . ولكن بعد أن تنتهى الحرب توجه الى ارتقاءات الانسان فى الأرض . فتفتيت الذرة وصلوا اليه فى

الحروب . والصواريخ التى وصل الانسان بها الى القمر كانت نتيجة حرب ، والارتقاءات العلمية المختلفة التى تمت فى أمريكا والاتحاد السوفيتى كان اساسها عداء كل معسكر للآخر .

وقوله تعالى « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » . . الهبوط قد يكون من مكان أعلى الى مكان أسفل . وقد يكون الهبوط معنويا . بأن تقول هذا الانسان هبط فى نظرى منذ فعل كذا . هو لم يهبط من مكان أعلى الى مكان أسفل .

ولكنه هبط فى قيمته . والمسافات لا تعنى قربا أو بعدا . فقد يكون انسان يجلس الى جوارك وأنت بعيد عنه لا تحس به . وقد يكون هناك انسان بعيد عنك بمئات الأميال ولكنه قريب الى قلبك أكثر من ذلك الجالس الى جوارك . وسواء كان الهبوط ماديا أو معنويا . فانه حدث ليباشر آدم مهمته على الأرض . . والعداوة بين الايمان والكفر مستمرة .

وهكذا بعد معصية آدم . هبط هو وحواء من الجنة ليمارسا حياتهما على الأرض . . وقوله تعالى « اهبطوا » معناه أن آدم وحواء وابليس هبطوا الى الأرض بعد أن تمت التجربة الايمانية .

لقد بين الله تعالى لآدم عمليا ان ابليس عدو له . لا يريد له الخير . وأنه كاذب فى كل ما يعد به الانسان . وقد حدد الله الحياة الدنيا بأنها حياة موقوتة . قدراتها محدودة . ومتاعها محدود . . فى قوله تعالى :

« ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » .

أى لا أحد سيبقى فى الأرض إلا بمقدار ماقدر الله له من عمر ثم يموت . وبهذا حذر الله آدم وذريته من أن يتخذوا من الحياة هدفاً لأن متاعها قليل ، وأمدها قصير .



﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

نزل آدم وحواء الى الارض ليمارسا مهمتهما فى الكون . وقبل أن يبدأ هذه المهمة . جعلهما الله سبحانه وتعالى يمران بتجربة عملية بالنسبة لتطبيق المنهج وبالنسبة لاغواء الشيطان . وحذرهما بأن الشيطان عدو لهما . . كان لابد بعد أن وقعت المعصية أن يشرع الله تعالى التوبة رحمة بعباده . ذلك أن تشريع التوبة ليس رحمة بالعاصى وحده ، ولكنه رحمة بالمجتمع كله . فالانسان اذا عصى وعرف أنه .. لاتوبة له وأنه محكوم عليه بالخلود فى النار . يتمادى فى اجرامه . لأنه مادام لا أمل له فى النجاة من عذاب الآخرة . فانه يتمادى فى المعصية . لأنه لا أمل فى الغفران أو التوبة . .

من الذى سيعانى فى هذه الحالة ؟ انه المجتمع الذى يعيش فيه ذلك العاصى . وسيكون المؤمنون أكثر الناس معاناة لأنهم أهل خير وتسامح . ولأن الله سبحانه وتعالى .. أمرهم بالعفو . والصفح . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

( سورة النور )

وقوله تعالى :

﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ ﴾

( من الآية ٢٣٧ سورة البقرة )

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحث المؤمنين على العفو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها :

« اوصانى بالاخلاص فى السر وفى العلانية.والقصد فى الغنى والفقر وأن اعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكرا ونطقى ذكرا ، ونظرى عبرا »(١)

فالتوبة لو لم تشرع لعانى المجتمع كله . وخاصة المؤمنين الذين أمروا أن يقابلوا العدوان بالصفح والظلم بالعفو . ولذلك كان تشريع التوبة من الله سبحانه وتعالى . رحمة بالناس كلهم .

والله جل جلاله شرع التوبة أولا . ثم بعد أن شرعها تاب العاصى . ثم بعد ذلك يقبل الله التوبة او لا يقبلها تبعا لمشيئته . واقرأ قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

( من الآية ١١٨ سورة التوبة )

آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه . أتوجد خطيئة بعد توبة آدم وقبول الله سبحانه وتعالى هذه التوبة ؟ ان بعض الناس يقول ان آدم قد عصى وتاب الله عليه . وابليس قد عصى فجعله الله خالدا فى النار . نقول : انكم لم تفهموا ماذا فعل آدم ؟ أكل من الشجرة المحرمة . وعندما علم أنه أخطأ وعصى . لم يصر على المعصية . ولم يرد الأمر على الآمر . ولكنه قال يارب أمرك ومنهجك حق . ولكننى لم

(١) ( رواه رزين ) .

اقدر على نفسى فسامحنى .

اعترف أدم بذنبه . واعترف بضعفه . واعترف بأن المنهج حق . وطلب التوبة من الله سبحانه وتعالى . ولكن ابليس رد الأمر على الأمر . قال : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » وقال « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » وقال : « فبعزتك لأغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين » وقال : « لأحتنكن ذريته الا قليلا » فإبليس هنا رد الأمر على الأمر . لم يعترف بذنبه . ويقول يارب غلبنى ضعفى . وأنت الحق وقولك الحق . ولكنه رد الامر على الله تعالى وعاند وقال سأفعل كذا وسأفعل كذا . وهذا كفر بالله .

إياك أن ترد الأمر على الله سبحانه وتعالى . فاذا كنت لا تصلى ..فلا تقل وما فائدة الصلاة . واذا لم تكن تزكى . فلا تقل تشريع الزكاة ظلم للقادرين . واذا كنت لا تطبق شرع الله . فلا تقل ان هذه الشريعة لم تعد تناسب العصر الحديث . فانك بذلك تكون قد كفرت والعياذ بالله . ولكن قل يارب ان فرض الصلاة حق . وفرض الزكاة حق . وتطبيق الشريعة حق . ولكننى لا أقدر على نفسى . فارحم ضعفى يارب العالمين . ان فعلت ذلك . تكن عاصيا فقط .

إن الفرق بين معصية آدم ومعصية ابليس . أن ادم اعترف بمعصيته وذنبه . ولكن ابليس رد الأمر على الأمر . فيكون آدم قد عصى ، وابليس قد كفر والعياذ بالله .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » هذه الكلمات التى تلقاها آدم . أراد العلماء أن يحصروها . ما هذه الكلمات ؟ هل هى قول آدم كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

( سورة الأعراف )

هذه الآية الكريمة . دلتنا على أن ذنب ادم لم يكن من ذنوب الاستكبار . ولكن من ذنوب الغفلة . . بينما كان ذنب ابليس من ذنوب الاستكبار على أمر الله . ولكن آدم عندما عصى حدث منه انكسار .

فقال : يارب امرك بألا أقرب الشجرة حق . ولكنى لم أقدر على نفسى . فآدم أقر بحق الله فى التشريع . بينما ابليس اعترض على هذا الأمر وقال :
« أأسجد لمن خلقت طينا »

الكلمات التى تلقاها آدم من الله سبحانه وتعالى قد تكون : « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » وقد تكون : . . اللهم لا اله الا أنت سبحانك ربى وبحمدك . انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا فاغفر لى يا خير الغافرين . . أو اقبل توبتى يا خير التوابين . . أو قال : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله . . المهم أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى لآدم بكلمات يتقرب بها اليه . سواء كانت هذه الآية الكريمة أو كلمات أخرى .

لو نظرنا الى تعليم الله آدم لكلمات ليتوب عليه . لوجدنا مبدأ مهما فى حياة المجتمع . لأن الله سبحانه وتعالى كما قلنا . . لو لم يشرع التوبة ولو لم يبشرنا بأنه سيقبلها . لكان الذى يذنب ذنبا واحدا لا يرجع عن المعصية أبدا . وكان العالم كله سيعانى . .

والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين ولم يخلقنا مقهورين . القهر يثبت صفة القدرة لله ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد منا أن نأتى عن حب وليس عن قهر . ولذلك خلقنا مختارين . وجعل لنا طاقة تستطيع أن تعصى وأن تطيع . ومادام هناك اختيار.. فالانسان يختار هذه أو تلك . .

إن الله لم يخلق بشرا يختارون الخير على طول الخط . وبشرا يختارون الشر فى كل وقت . فهناك من الخيرين من يقع فى الشر مرة ، وهناك من الشريرين من يعمل الخير مرة . فالعبد ليس مخلوقا أن يختار خيرا مطلقا . أو أن يختار شرا مطلقا . . ولذلك فأحيانا ننسى أو نسهو . أو نعصى . ومادام العبد معرضا للخطيئة . فالله سبحانه وتعالى شرع التوبة . حتى لا ييأس العبد من رحمة الله ، ويتوب ليرجع الى الله . وقد جاء فى الحكمة : « رب معصية أورثت ذلا وانكسارا . خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا » .

وهكذا عندما نزل آدم ليباشر مهمته فى الحياة . لم يكن يحمل أى خطيئة على كتفيه . . فقد أخطأ وعلمه الله تعالى كلمات التوبة . فتاب فتقبل الله توبته . .

وقوله سبحانه وتعالى : « انه هو التواب الرحيم » . . كلمة تواب تدل على أن الله تعالى لا يأخذ عباده بذنب واحد . لأنه سبحانه وتعالى حتى لو تاب عن ذنب واحد لكل عبد من عباده كان توابا . والمبالغة فى الصفة تأتى من ناحيتين . اولا أن الامر يتكرر عدة مرات من عدد قليل من الاشخاص . أو من شخص واحد . او أن الأمر يقع مرة واحدة ولكن من اشخاص كثيرين . .

فاذا قلت مثلا : فلان أكول ، قد يكون أكولا لانه يأكل كمية كبيرة من الطعام . فيسمى أكولا . . إنه لا يتجاوز طعامه فى عدد مراته وجبات الطعام العادى للانسان . ولكنه يأكل كمية كبيرة . فنسميه اكولا . فيأكل مثلا عشرة ارغفة فى الافطار ومثلها فى الغداء ومثلها فى العشاء .

وقد يكون الانسان اكولا اذا تكرر الفعل نفسه . . كأن يأكل كميات الطعام العادية ولكنه يأكل فى اليوم خمس عشرة مرة مثلا . . فالله سبحانه وتعالى تواب لأن خلقه كثيرون . فلو اخطأ كل واحد منهم مرة . يكون عدد ذنوبهم التى سيتوب الله عليها كمية هائلة . فاذا وجد من يذنب عدة مرات فى اليوم . فان الله تعالى . يكون توابا عنه ايضا اذا تاب واتجه اليه . .

اذن مرة تأتى المبالغة . فى الحدث وان كان الذى يقوم به شخص واحد . ومرة تأتى المبالغة فى الحدث لأن من يقوم به أفراد متعددون . .

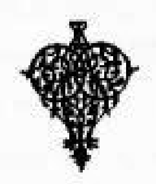
إذن فآدم أذنب ذنبا واحدا . يقتضى أن يكون الله تائبا . ولكن ذرية آدم من بعده سيكونون خلقا كثيرا . . فتأتى المبالغة من ناحية العدد . .

وقوله تعالى : « انه هو التواب الرحيم » سيدنا عمر جاءته امرأة تصيح وتصرخ لأن ابنها ضبط سارقا . وقالت لعمر ما سرق ابنى الا هذه المرة . فقال لها عمر : الله ارحم بعبده من أن يأخذه من أول مرة . لابد أنه سرق من قبل . .

وانا أتحدى أن يوجد مجرم يضبط من أول مرة .

كلمة تواب تدل على أنه يضبط بعد مرتين أو ثلاث، فالله يستر عبده مرة ومرة . ولكن اذا ازداد وتمادى فى المعصية . يوقفه الله عند حده . وهذا هو معنى تواب .

والحق سبحانه وتعالى . تواب برحمته .. لأن هناك من يعفو ويظل يمن عليك بالعفو . حتى أن المعفو عنه يقول : ليتك عاقبتنى ولم تمن على بالعفو كل ساعة . لكن الحق سبحانه وتعالى . تواب رحيم . يتوب على العبد . ويرحمه فيمحو عنه ذنوبه .



﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن
تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨ ﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية : « قلنا اهبطوا منها جميعا » وفى سورة طه يقول جل جلاله « قال اهبطا منها جميعا » عندما خاطب الله سبحانه وتعالى بصورة الجمع . كان الخطاب لكل ذرية آدم المطمورة فى ظهره . أمرالهم جميعا بالهبوط . آدم وحواء والذرية . لأن كل واحد منا . الى أن تقوم الساعة فيه جزىء من آدم . ولذلك لابد أن نلتفت الى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِءَادَمَ ﴾

( من الآية ١١ سورة الأعراف )

نلاحظ هنا أن الخطاب بصيغة الجمع ، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى . لقد خلقتك ثم صورتك ثم قلت للملائكة اسجدوا لآدم ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أنه ساعة الخلق كان كل ذرية آدم مطمورين فى ظهره . خلقهم جميعا ثم صورهم جميعا . ثم طلب من الملائكة السجود لادم . فهل نحن كنا موجودين ؟ نعم كنا موجودين فى آدم . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول : « اهبطوا » لنعرف أن هذا الخطاب موجه الى آدم وذريته جميعا الى يوم القيامة .

ومرة يقول « اهبطا منها جميعا » لأن هنا بداية تحمل المسئولية بالنسبة لآدم . فى هذه اللحظة وهى لحظة الهبوط فى الأرض . سيبدأ منهج الله مهمته فى الحياة . ومادام هناك منهج وتطبيق فردى . تكون المسئولية فردية . ولا يأتى الجمع هنا .

فالحق سبحانه وتعالى يقول : « اهبطا منها جميعا » نلاحظ أن أمر الهبوط هنا

بالمثنى . ثم يقول تبارك وتعالى جميعا . . جمع . . نقول أنه مادامت بداية التكليف . فهناك طرفان سيواجه بعضهما البعض . الطرف الأول . هو آدم وزوجه . والطرف الثانى هو ابليس . فهم ثلاثة ولكنهم فى معركة الايمان . فريقان فقط . آدم وحواء وذريتهما فريق . والشيطان فريق آخر . فكأن الله تعالى يريد أن يلفتنا الى أن هذا الهبوط يتعلق بالمنهج وتطبيقه فى الأرض . وفى المنهج آدم وحواء حريصان على الطاعة . وابليس حريص على أن يقودهما الى المعصية .

وفى قوله تعالى : « فإما يأتينكم منى هدى » نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى بعد أن مر آدم بالتجربة ووقع فى المعصية ، علمه الله تعالى كلمات التوبة . ونصحه أنه اذا غفل يتوب . والله سبحانه وتعالى . . سيقبل توبته . .

اذن فالحق سبحانه وتعالى يريد من أدم وحواء ان يسكنا الأرض . ويبدآ مهمتهما فى الحياة . والله يدلهما على الخير . مصداقا لقوله تعالى : « فإما يأتينكم منى هدى » . . وهدى لها معنيان . . هى بمعنى الدلالة على الخير . أو الدلالة على الطريق الموصلة للخير . وهناك هدى وهو الاعانة على الايمان والزيادة فيه . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

( سورة محمد )

الهدى هنا فى الآية الكريمة . . بمعنى الدلالة على طريق الخير . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ما هو الخوف وما هو الحزن ؟ الخوف أن تتوقع شرا مقبلا لا قدرة لك على دفعه فتخاف منه . . والحزن أن يفوتك شىء تحبه وتتمناه .

والحق سبحانه وتعالى يقول فى هذه الآية : من مشى فى طريق الايمان الذى دللته عليه . وأنزلته فى منهجى . فلا خوف عليهم . أى أنه لا خير سيفوتهم فيحزنوا عليه . لأن كل الخير فى منهج الله . فالذى يتبع المنهج لا يخاف حدوث شىء أبدا .

وهذه تعطينا قضية مهمة فى المجتمع . الذى لم يرتكب أية مخالفة ..هل يناله خوف ؟ أبدا . . ولكن من يرتكب مخالفة تجده دائما خائفا خشية أن ينكشف أمره .. ويفاجأ بشر لا قدرة له على دفعه .

إن الانسان المستقيم لا يعيش الخوف . لأن الخوف أمران . اما ذنب أنا سبب فيه . والسائر على الطريق المستقيم لم يفعل شيئا يخاف انكشافه . واما أمر لا دخل لى فيه . يجريه على خالقى . وهذا لابد أن يكون لحكمة . قد ادركها . وقد لا أدركها ولكنى اتقبلها . فالذى يتبع هدى الله . لا يخاف ولا يحزن . لأنه لم يذنب . ولم يخرق قانونا . ولم يغش بشرا . أو يخفى جريمة . فلا يخاف شيئا ، ولو قابله حدث مفاجىء ، فقلبه مطمئن . والذين يتبعون الله . لا يخافون . ولايخاف عليهم . . وقوله تعالى : « ولا هم يحزنون » لأن الذى يعيش طائعا لمنهج الله.. ليس هناك شىء يجعله يحزن . ذلك أن ارادته فى هذه الحالة تخضع لارادة خالقه . فكل ما يحدث له من الله هو خير . حتى ولو كان يبدو على السطح غير ذلك . ملكاته منسجمة وهو فى سلام مع الكون ومع نفسه . والكون لا يسمع منه الا التسبيح والطاعة والصلاة . وكلها رحمة . فهو فى سلام مع نفسه . وفى سلام مع ربه . وفى سلام مع المجتمع .

إن المجتمع دائما يسعد بالانسان المؤمن الذى لا يفسد فى الأرض . بل يفعل كل خير . فالمؤمن نفحة جمال تشع فى الكون . ونعمة حسن ورضا مع كل الناس . ومادام الانسان كذلك . فلن يفقد ما يسره أبدا . فإن اصابته أحداث ..أجراها الله عليه .. لا يقابلها الا بالشكر . وان كان لا يعرف حكمتها . . واياك أن تعترض على الله فى حكم .

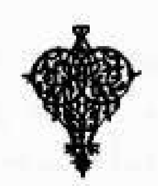
ولذلك يقول : احمدك ربى على كل قضائك وجميع قدرك . حمد الرضا بحكمك واليقين بحكمتك . .

والانسان ينفعل للأحداث . ولكن هناك فرق بين الانفعال للاحداث وحدها وبين الانفعال للاحداث مع حكمة مجريها . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الدقة حينما قال : ( إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول الا ما يرضى ربنا وإنّا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون ) (١)

(١) رواه البخارى ومسلم وابن ماجه وأحمد وهذا لفظ البخارى

انظروا الى الايمان وهو يستقبل الاحداث . . العين تدمع . ولا يكون القلب قاسيا مثل الحجر ، لكن فيه حنان . والقلب يخشع لله . مقدرا حكمته وارادته . .

والله سبحانه وتعالى لا يريدنا أن نستقبل الأحداث بالحزن وحده . ولكن بالحزن مع الايمان . فالله لا يمنعك أن تحزن . ولكن عليك ألا تفصل الحدث عن مجريه وحكمته فيه . . ولذلك حين تذهب الى طبيب العظام .. فيكسر لك عظامك لكى يصلحها . هل يفعل لك خيرا أو شرا ؟ طبعا يفعل لك خيرا . وان كان ذلك يؤلمك .



﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٣٩)

الحق سبحانه وتعالى بعد أن أعلمنا أن آدم حين يهبط الى الارض سيتلقى من الله منهجا لحركة حياته . من اتبعه خرج من حياته الخوف والحزن . وأصبح آمنا فى الدنيا والآخرة . أراد الله تعالى أن يعطينا الصورة المقابلة . فالحكم فى الآية السابقة كان عن الذين اهتدوا . والحكم فى هذه الآية عن الذين كفروا . يقول الحق تبارك وتعالى . . « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا » والكفر كما بينا هو محاولة ستر وجود الله واجب الوجود. ومحاولة ستر هذا الوجود هو اعلان بأن الله تعالى موجود . فأنت لا تحاول أن تستر شيئا الا اذا كان له وجود أولا . .

إن الشىء الذى لا وجود له لا يحتاج إلى ستر ؛ لأنه ليس موجودا فى عقولنا . وعقولنا لاتفهم ولاتسع إلا ماهو موجود . توجد الصورة الذهنية أولا . . ثم بعد ذلك يوجدالاسم أو الصورة الكلامية . ولذلك إذا حدثك إنسان عن شىء ليس له وجود فأنت لاتفهمه . ولاتستطيع أن تعيه إلا إذا شبه لك بموجود . كأن يقال لك : مثل هذا الجبل أو مثل هذه البحيرة . أو مثل قرص الشمس أو غير ذلك حتى تستطيع أن تفهم . فأنت لاتفهم غير موجود إلا إذا شبه بموجود .

وكل شىء لابد أن يكون قد وجد أولا . ثم بعد ذلك تجتمع مجامع اللغة فى العالم لتبحث عن لفظ يعبر عنه بعد أن وجد فى الصورة الذهنية . فلم يكن هناك اسم للصاروخ مثلا قبل أن يوجد الصاروخ . ولا لسفينة الفضاء قبل ان تخترع . ولا لأشعة الليزر قبل أن تكتشف . اذن فكل هذا وجد أولا . ووضع له الاسم بعد ذلك .

الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله . وستر وجود الله سبحانه وتعالى هو اثبات لوجوده . لأنك لا تستر شيئا غير موجود . وهكذا يكون الكفر مثبتا للايمان .

وعقلك لا يستطيع أن يفهم الاسم الا اذا وجد المعنى فى عقلك . وأنت لا تجد لغة من لغات العالم . ليس فيها اسم الله سبحانه وتعالى . بل ان الله جل جلاله ـ وهو غيب عنا ـ اذا ذكر اسمه فهمه الصغير والكبير . والجاهل والعالم . والذى طاف الدنيا . والذى لم يخرج من بيته . كل هؤلاء يفهمون الله بفطرة الإيمان التى وضعها فى قلوبنا جميعا .

اذن الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله سبحانه وتعالى . . وقوله تعالى : « وكذبوا بآياتنا » والآية هى الشيء العجيب اللافت . فهناك فى الكون آيات كونية مثل الشمس والقمر والنجوم والارض . والجبال والبحار وغير ذلك . هذه تسمى آيات . شيء فوق قدرة البشر خلقها الله سبحانه وتعالى لتكون آية فى كونه وتخدم الانسان .

وهناك الآيات وهى المعجزات . عندما يرسل الله رسولا أو نبيا الى قومه فإنه سبحانه يخرق له قوانين الكون ليثبت لقومه أنه نبى مرسل من عند الله سبحانه وتعالى . وهذه الآيات مقصود بها من شهدها . لأنها تأتى لتثبيت المؤمنين بالرسل . وهم يمرون بأزمة يحتاجون فيها الى التثبيت . ودلالة على صدق رسالة النبى لقومه . . وتطلق الآيات على آيات القرآن الكريم . كلام الله المعجز الذى وضع فيه سبحانه وتعالى ما يثبت صدق الرسالة . الى يوم الدين .

يحدثنا الله سبحانه فى أياته . عن كيفية خلق الانسان . وعن منهج السماء للارض وغير ذلك .

والذين كذبوا بآيات الله . هم الكافرون . وهم المشركون . وهم الذين يرفضون الاسلام . ويحاربون الدين . هؤلاء جميعا . حدد لنا الله تعالى مصيرهم . ولكن هل التكذيب عدم قدرة على الفهم ؟ نقول أحيانا يكون التكذيب متعمدا مثلما حدث لآل فرعون عندما أصابهم الله بآفات وامراض وبالعذاب الاصغر حتى يؤمنوا . ولكنهم رغم يقينهم بأن هذه الآيات من الله سبحانه وتعالى . لم يعترفوا

بها . . ويقول الحق جل جلاله .

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾

( من الآية ١٤ سورة النمل )

والآيات فى الكون كثيرة . لو أننا التفتنا اليها لآمنَّا . فهى ليست محتاجة الى فكر . بل ان الله تعالى ، رحمة بنا جعلها ظاهرة . ليدركها الناس . كل الناس . ولكن البعض رغم ذلك يكذب بآيات الله . وهؤلاء هم الذين يريدون أن يتبعوا هوى النفس . والحق سبحانه وتعالى جمع الكافرين والمكذبين بآيات الله فى عقاب واحد .. وقال جل جلاله : « اولئك اصحاب النار » والصاحب هو الذى يألف صاحبه . ويحب أن يجلس معه . ويقضى أجمل أوقاته . فكان قوله تعالى: أصحاب النار . دليل على عشق النار لهم . فهى تفرح بهم ، عندما يدخلونها . كما يفرح الصديق بصديقه . ولا تريد أن تفارقهم أبدا . . ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

( سورة ق )

وهكذا نرى مدى العشق ، بين النار والكافرين . ان النار تصاحبهم فى كل مكان . وهى ليست مصاحبة كريهة بالنسبة للنار . ولكنها مصاحبة تحبها النار . فالنار حين تحرق كل كافر وآثم ومنافق تكون سعيدة . لأنها تعاقب الذين كفروا بمنهج الله وكذبوا بآياته فى الحياة الدنيا . . وكذلك الحال بالنسبة للجنة . فإن الجنة أيضا تحب مصاحبة كل من آمن بالله واخلص له العبادة وطبق منهجه .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

( سورة هود )

أى أن الجنة تصاحب المؤمنين . وتحبهم وتلازمهم . مثلما تصاحب النار الكافرين والمكذبين . . وكما أن النار تكون سعيدة وهى تحرق الكافر . فالجنة تكون سعيدة وهى تمتع المؤمن . . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « هم فيها خالدون » أى أن العذاب فيها دائم . لا يتغير ولا يفتر . ولا يخفف . بل هو مستمر الى الأبد . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦ ﴾

( سورة البقرة )

وهكذا نعرف ان الله سبحانه وتعالى قد انزل المنهج الى الارض مع آدم ، وأن آدم . نزل الى الأرض ومعه الهدى ليطبق أول منهج للسماء على الأرض . فكأن الله سبحانه وتعالى لم يترك الانسان لحظة واحدة على الأرض دون أن يعطيه المنهج الذى يبين له طريق الهدى وطريق الضلال . ومع المنهج شرعت التوبة . وشرع قبول التوبة حتى لا ييأس الانسان . ولا يحس أنه اذا أخطأ أو نسى أصبح مصيره جهنم . بل يحس ان أبواب السماء مفتوحة له دائما . وان الله الذى خلقه رحيم به . اذا أخطأ فتح له أبواب التوبة وغفر له ذنوبه . حتى يحس كل انسان برعاية الله سبحانه وتعالى له وهو على الأرض . من أول بداية الحياة .

فالمنهج موجود لمن يريد أن يؤمن . والتوبة قائمة لكل من يخطىء .

وحذر الله سبحانه وتعالى آدم وذريته أنه من يطع ويؤمن يعش الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة . ومن يكفر ويكذب . فإن مصيره عذاب أبدى .

لقد عرف الله آدم بعدوه ابليس . وطلب منه أن يحذره . فماذا فعل بنو آدم ؟ هل استقبلوا منهج الله بالطاعة أو بالمعصية ؟ وهل تمسكوا بتعاليم الله . أو تركوها وراء ظهورهم ؟

